

- العنوان: العائلات المغربية بين المغرب والمشرق خلال العصر الوسيط: عائلة الزواوي نموذجاً
- المصدر: أعمال مهدة إلى الأستاذ راضي دغفوس
- الناشر: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
- المؤلف الرئيسي: السلامي، محرز
- محكمة: نعم
- التاريخ الميلادي: 2016
- مكان انعقاد المؤتمر: تونس
- الهيئة المسؤولة: جامعة تونس - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط
- الصفحات: 405 - 429
- رقم MD: 914008
- نوع المحتوى: بحوث المؤتمرات
- قواعد المعلومات: HumanIndex
- مواضيع: المجتمع المغربي، العائلات المغربية، عائلة الزواوي
- رابط: <https://search.mandumah.com/Record/914008>

العائلات المغربية بين المغرب والمشرق خلال العصر الوسيط عائلة الزواوي نموذجاً

محرز السلاّمي

باحث

جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط
Université de Tunis, FSHST, LR99ES01, LMAIM, 1999

التقديم :

يهدف هذا المقال إلى تفكيك الأخبار التاريخية المتعلقة بالعائلات كوحدة بشرية متفاعلة مع واقعها ومتصلة به، هذا الإهتمام له ما يبرره ضمن التخصصات الإنسانية والاجتماعية التي باتت تركز على الفرد دون المجموعة، فكتب التراجم والسير ارتكزت على الجانب الفردي الضيق، لكن بدأ الإهتمام بالعائلات مع ظهور مقاربات متنوعة ساهمت في مزيد تسليط الأضواء على هذا المجال من نواحي متنوعة.

في هذا المقال أردنا المساهمة من جانبنا في عملية البحث من خلال أخذ عينة عن العائلات المغربية متمثلة في عائلة الزواوي، إحدى العائلات التي لم تنل حظها ضمن الدراسات الاجتماعية والثقافية وبقيت مغمورة نوعاً ما وربما كان ذلك بسبب ضعف دورها على الصعيد السياسي الأكثر مجلبة للشهرة. ومثل أغلب العائلات رسمت هذه العائلة منهجها الخاص بفضل تحركها مما أوجد لها إطاراً جغرافياً متسعاً، هذا بالإضافة إلى إطارها الاجتماعي والتاريخي الذي أنتجته. وهو ما سنحاول الكشف عنه وتفكيكه.

فما هي أبرز الإسهامات التي قدمتها عائلة الزواوي ؟

ما هي طبيعة اهتماماتها ؟ وكيف يمكن تصنيفها ؟

I- عائلة الزواوي :

1- القبيلة والتسمية :

ارتبطت عائلة الزواوي بقبيلة مغربية بربرية تسمى زواوة وهي القبيلة المحيطة مباشرة بمدينة بجاية وموقعها في مجال المغرب الأدنى. وقد برزت لنا أهميتها من حيث فروعها المتعددة مقارنة بالبقية إذ هي أكبر القبائل بظاهر بجاية من حيث البطون والأفخاذ¹. حتى أن هذه الفروع أو البطون اعتبرت قبائل في حد ذاتها نظرا لامتدادها ديمغرافيا وجغرافيا.

ذكر ابن خلدون في حديثه عن بناء بجاية، أن الأمير الحمادي الناصر بن علناس (454هـ/1062م-481هـ/1088م) كان قد بنى الناصرية (بجاية) سنة 460هـ/1068م بساحتهم². أي أن البناء تم على مجال هام من قبيلة زواوة.

وحسب هذا المؤرخ، فإن قبيلة زواوة كانت تعيش على بسائط (أراضي) بلاد بجاية وقسنطينة وكتامة وهوارة وعجيسة، لكن هذا المجال تقلص عندما زحفت القبائل العربية في أواسط القرن 5هـ/11م.

كشف الدكتور صالح بعيزيق في أطروحته عن بجاية عن علاقة التماهي والتواصل بين المدينة بجاية وقبائلها وخاصة قبيلة زواوة. فالقادمون من هذه القبائل نحو المدينة هم أساسا من زواوة ومنطقة الحضنة³. اللذين مثلا المزود الرئيسي للمدينة بالطاقات البشرية خاصة.

2- زواوة : قبيلة مستقرة أم طاعنة ؟

اختلفت المصادر في إثبات طبيعة هذه القبيلة : فهناك من يقول أنها مستقرة وهناك من يرى أنها غير ذلك.

عند قراءتنا للمصادر، تبين لنا أن هناك إجماعا حولها بأنها ذات طبيعة مستقرة وقد جاء ذلك في العبر لابن خلدون وعنوان الدراية للغيريني وابن حزم (ت 456هـ/1048م) وكذلك لدى Gautier في كتابه

1- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنبياء الزمان، دار صادر بيروت، ج4، ص 21.

2- ابن خلدون، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني بيروت، ج6، ص 263.

3- بعيزيق (صالح)، بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2006، ص 120.

تاريخ شمال إفريقيا. ويبقى الاستثناء في كتاب مفاخر البربر ومؤلفه مجهول الذي يعتبر أن زواوة قبيلة مرتحلة أي من البتر.

أمام هذا الاختلاف سنحاول معالجة هذه الإشكالية من خلال الكشف عن علاقة هذه القبيلة بمحيطها ومدى أهميتها بالنسبة لمدينة بجاية.

حسب المعطيات التي بحوزتنا، فإن قبيلة زواوة واقعة في منطقة جبلية والجال ترومها القبائل المستقرة حسب عبارة المؤرخ Gautier⁴، هذا الموقع الجبلي يجعلها قبيلة يصعب اختراقها وهو ما حصل فعلا مع القبائل الهلالية التي توقفت حسب ابن خلدون عند الحواجز الجبلية⁵. وبما أنها منطقة منغلقة فإن أهلها ليست لهم الرغبة في التنقل والترحال.

معطى آخر يجعل من هذه القبيلة ذات خاصية مستقرة، ألا وهو ما قدمته لمدينة بجاية على المستوى البشري، فإثناء بناء مدينة الناصرية (سنة 460هـ/1068م) تم تركيز العنصر البشري بها في إطار التوطين والتعمير "فنقل إليها الناس وأسقط الخراج عن ساكنيها"⁶. وبما أن بجاية هي دار زواوة فهذا يعني أنها قد شاركت في عملية التعمير. إذن زواوة قبيلة مستقرة استطاعت بفضل هذه الميزة أن تساهم في إثراء الحركة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمدينة بجاية.

II- تراجم زواوية :

سنحاول في هذا الباب تكوين معجم أسماء لعائلة الزواوي وتقسيمه إلى فرعين الأول مشرقي والثاني مغربي وسنتبع ترتيبا حسب تاريخ الوفاة.

1- الفرع المغربي :

*سيدي يحيى الزواوي : (ت 611هـ/1215م).

هو الفقيه أبو زكرياء يحيى ابن أبي علي، المشتهر بسيدي يحيى الزواوي. ولد في بني عيسى إحدى قرى زواوة، درس بقلعة بني حماد

4- Gautier (E.F), *Le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs*, Payot, Paris, 1952, p 219.

5- ابن خلدون، نفس المصدر، ج 6 ص 204.

6- ابن خلدون، نفس المصدر، ج 6 ص 357.

وكان ابن الخراط⁷. من أبرز شيوخه كانت له رحلة إلى المشرق لم نعرف إلى أي بلد اتجه. ثم كانت عودته إلى بجاية للتدريس. افرد له الغبريني ترجمة مطولة كأحد أبرز أعلام التصوف كاشفاً عن قدسيته. قال عنه : "كراماته أكثر من أن تحصى ولو كتبت لكنت مجلدات" توفي أبو زكرياء ببجاية⁸.

*أبو إسحاق الزواوي : (ت 686هـ/1287م)

هو الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن ميمون بن بهلول الزواوي، كانت له رحلة إلى المشرق، من أبرز شيوخه بتونس الفقيه عز الدين بن عبد السلام وهو كذلك علم من أعلام المتصوفة حسب الغبريني⁹.

*أبو يوسف يعقوب المنجلاتي : (ت 690هـ/1291م)

هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوي المنجلاتي، ولد بمنجلات إحدى قرى زواوة. انتقل إلى تونس فأخذ عن الشيخ أبو العباس ابن عجلان ثم تولى مشيخة الإقراء اثر عودته إلى بجاية كما ولي وظيفة الإفتاء. قال عنه الغبريني : "من أصحابنا الذين جمعنا معهم عصر واحد" ورغم معاصرته له إلا أن الغبريني لم تكن ترجمته للمنجلاتي شافية توفي أبو العباس ببجاية¹⁰.

*أبو الحسن اليتورغي : (ق 7هـ/13م) :

هو أبو الحسن علي بن محمد الزواوي اليتورغي، نسبة إلى يتورغ إحدى قرى زواوة، اشتهر بكراماته وقد أثنى عليه تلميذه الغبريني بقوله : "له عبادة وديانة وصلاح وانقطاع وزهد وولاية"¹¹.

7- ابن الخراط : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، المعروف بابن الخراط من بني حماد، توفي في بداية القرن 7هـ/13م : الغبريني، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ص 128.

8- الغبريني، نفس المصدر، ص 127. ابن الطواح، سبك المقال لفك العقال، تراجم وأعلام من القرنين السابع والثامن هجريين، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1995، تحقيق ودراسة محمد مسعود جبران، ص 89. برونشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988، ترجمة حمادي الساحلي، ج2، ص 335.

9- الغبريني، نفس المصدر، ص 182.

10- الغبريني، نفس المصدر، ص 226.

11- الغبريني، نفس المصدر، ص 133.

*أبو النجم هلال الغبريني : (عاش في القرن 7هـ/13م)

هو الفقيه أبو النجم هلال بن يونس بن علي الغبريني، المولود بغبرين إحدى قرى زواوة. ولد في أوائل القرن 7هـ/13م. وشأنه شأن الفقيه يحيى الزواوي، يعتبر أبو النجم من أبرز اعلام التصوف في تلك الفترة فهو "رجل من أهل الجنة" على حد عبارة صاحبه يحيى الزواوي¹².

*ابن حماسة الغبريني :

الفقيه والنحوي أبو محمد عبد الحق بن يوسف بن حماسة الغبريني. عاش في القرن 7هـ/13م تولى وظيفة القضاء ببجاية¹³.

*أبو العباس الغبريني : (644هـ/704هـ-1246م-1304م)

الفقيه والمؤرخ أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، مؤلف "عنوان الدراية" ولد ببني غبرين سنة 644هـ/1246م، أما تاريخ وفاته فقد اختلفت حوله المصادر والمرجح أنه توفي سنة 704هـ/1304م¹⁴. اتهم بتحريض بني غبرين ضد الأمير أبي اسحاق الذي أسر وسلم للدعي أحمد بن مرزوق المسيلي، هذه التهمة كانت سببا في نكبته. درس في جامع الزيتونة، شغل خطة القضاء بعدة مدن آخرها بجاية وكان شديدا في أحكامه. من أبرز شيوخه الفقيه أبو محمد عبد الحق البجائي (ت 675هـ/1276م) والفقيه أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن خلف الجزائري والفقيه أبو العباس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمان العماري (ت 682هـ/1283م) يعتبر كتابه عنوان الدراية مصدرا أساسيا لتراجم علماء القرن 7هـ/13م ببجاية¹⁵.

12- الغبريني، نفس المصدر، ص 169.

13- الغبريني، نفس المصدر، ص 268.

14- يذكر أن الخطيب القسنطيني أن تاريخ وفاة الغبريني كانت سنة 704هـ/1304م، وهو ما ذهب إليه كل من ابن خلدون والقاضي النباهي. أما ابن فرحون فيرى أن الغبريني توفي سنة 604هـ/1204م وهذا مستبعد جدا. في حين أن الزركلي يضع سنة 714هـ/1314م.

15- النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د-ت) ص 132.

التبكتي (أحمد بابا)، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد ط1، 2004، تحقيق علي عمر، ج1، ص 102.

Hopkins (J.F.P) « Ghubrini », EI², Leyde, Paris, 1977, Tome II, p 1102.

*أبو عبد الله الزواوي : (ت.730هـ/1329م)

محمد بن يعقوب بن يوسف المنجلاتي الزواوي، البجائي، أبو عبد الله، ابن الفقيه أبو يوسف يعقوب المذكور سابقاً، لم نجد تاريخاً لولادته، تولى القضاء ببجاية مدة قصيرة. دخل المرية (سنة 715هـ/1315م) لتدريس الفقه حاملاً معه مختصر ابن الحاجب الذي جلبه صديقه ناصر الدين المشدالي من القاهرة. من أبرز شيوخه والده أبو يوسف يعقوب المنجلاتي والشيخ عبد العزيز بن مخلوف بن كحيلة. توفي أبو عبد الله ببجاية¹⁶.

*ناصر الدين المشدالي : (631هـ-731هـ/1235م-1331م)

هو الفقيه أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي ناصر الدين أبو علي الزواوي، أول من نقل مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي إلى الغرب الإسلامي. والمشدالي نسبة إلى مشدالة إحدى بطون زواوة انتقل إلى المشرق وأقام هناك أكثر من 20 سنة ومن أهم شيوخه أبي عمرو ابن الحاجب¹⁷ صاحب المختصر والشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ صدر الدين سليمان الحنفي¹⁸. والشيخ شرف الدين ابن السبكي والشيخ شمس الدين الأصبهاني¹⁹. وينتمي هذا الفقيه إلى بيت مشهور بالدين وخدمة العلم شأنه شأن صهره وتلميذه الفقيه عمران بن موسى المشدالي الذي نقل بدوره المختصر إلى تلمسان والفقيه محمد بن أبي القاسم المشدالي. توفي ناصر الدين ببجاية²⁰.

16- ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، المكتبة العتيقة، تونس - دار التراث، القاهرة، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، ج2، ص 101، التنبكتي، نفس المصدر، ج2، ص 40.

17- هو النحوي والفقيه المالكي جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر، كردي الأصل، تولى والده الحجابة من الأمير الأيوبي عز الدين الصلاحي. ولد بالقاهرة بعد سنة 570هـ/1174م وتوفي بالإسكندرية سنة 646هـ/1249م.

Fleisch (H) *Ibn Al Hadjib*, EI², III, p804.

18- هو الفقيه سليمان بن أبي العز بن وهيب الأذري، صدر الدين شيخ الحنفية، ولي القضاء بمصر والشام وتوفي بدمشق سنة 677هـ/1278م. الغبريني، نفس المصدر، ص 229.

19- هو الفقيه محمود بن عبد الرحمان شمس الدين أبو الثناء الأصبهاني، شيخ المفسرين، توفي سنة 749هـ/1348م. الغبريني، نفس المصدر، ص 120.

20- الغبريني، نفس المصدر، ص 229، ابن خلدون، نفس المصدر، ص 808، التنبكتي، نفس المصدر، ج2، ص 306.

Pouzet (Louis) *Damas au VII/XIIIe vie et structures religieuses dans une métropole islamique*, Dar El Machreq sarl Editeurs, Beyrouth, 1988, p 102.

***أبو موسى المشدالي : (670هـ-745هـ/1271م-1344م)**

هو الفقيه عمران بن موسى المشدالي الزواوي، صهر الفقيه ناصر الدين المشدالي. ولد بمشدالة سنة 670هـ/1271م. ساهم في نقل مختصر ابن الحاجب إلى تلمسان حيث وجد الحضوة هناك من قبل السلطان الزياني أبو تاشفين، توفي بتلمسان²¹.

***أحمد بن محمد الزواوي : (ت. 749هـ/1348م)**

هو الفقيه أحمد بنت محمد الزواوي البجائي، نزيل فاس، علاقته بالبلاط المريني تبدو وطيدة وذلك من خلال ما ذكرته المصادر عنه، حيث كان من الملازمين لمجلس السلطان أبي الحسن المريني. قدم أفريقية معه أثناء حصاره تونس. ثم مات غريقا بساحل تدلس²² لما غرق أسطول هذا السلطان أثناء فشل الحصار ومحاولة العودة لفاس، لقبه ابن خلدون بشيخ القراء بالمغرب، من أبرز شيوخه أبو عبد الله محمد بن رشيد وأبي الحسن ابن سليمان القرطبي وأبي جعفر بن الزبير. قبره بباب الجيسة بمدينة فاس، وقد ذكره الكتاني في جملة الصلحاء والأولياء الذين دفنوا هناك²³.

***منصور بن علي بن عبد الله أبو علي الزواوي : (ت. 766هـ/1364م)**

ولد ببجاية أوائل القرن 8هـ/14م حيث تفقه عن أبرز الشيوخ، منهم الفقيه ناصر الدين المشدالي الزواوي الذي قرأ عليه فقه ابن الحاجب. انتقل سنة 753هـ/1352م إلى الأندلس فأجازه ابن الفخار وتولى هناك وظيفة الإفتاء، لكن اختلافه مع فقهاء الأندلس أدى به إلى التحول إلى تلمسان سنة 765هـ/1363م فالتقى بالشيخ عبد المهيم الحضرمي فأخذ عنه. درس أبو علي الزواوي بالأندلس وتلمسان وقد أثنى عليه صديقه لسان الدين ابن الخطيب في "الإحاطة" توفي بتلمسان²⁴.

21- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، التنبكتي، نفس المصدر، ج1 ص 396.

22- تدلس : وكذلك تدليس، وهي مدينة ساحلية على البحر المتوسط بين بجاية والجزائر، الحموي (ياقوت) معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1986، ج2، ص 17.

23- التنبكتي، نفس المصدر، ج1، ص 87. الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004، ج3، ص 215. الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، 2001، ج4، ص 160.

24- جامعة الجزائر، معجم مشاهير المغاربة، الملكية للطباعة والإعلام والنشر والتوزيع، الجزائر، 1995، ص 46.

***أحمد بن أحمد بن أحمد أبو القاسم الغبريني : (ت. بعد 770 هـ/1368م)**
هو أحد أبناء أبي العباس الغبريني مؤلف "عنوان الدراية"، لم نجد تاريخاً لولادته. تولى وظيفتي الإفتاء والتدريس بتونس. من أهم شيوخه عز الدين بن عبد السلام.²⁵

***أبو سعيد الغبريني : (عاش في القرن 8هـ/14م)**
هو الفقيه أحمد بن أحمد بن أحمد أبو سعيد الغبريني، الإبن الثاني لأبي العباس، لم نجد له ترجمة ضافية.²⁶

***علي بن عثمان المنجلاتي الزواوي : (796هـ-857هـ/1393م-1453م)**
هو الفقيه علي بن عثمان المنجلاتي الزواوي البجائي من شيوخه أبو عبد الله القشاني بتونس وعبد العالي بن فراج ببجاية وعبد الرحمان الواغليسي بقسنطينة. شرح ألفية ابن مالك في النحو ومختصر الخليل، توفي بقسنطينة.²⁷

***منصور بن علي بن عثمان المنجلاتي الزواوي :**
هو ابن الفقيه علي بن عثمان المنجلاتي كان حياً في حدود سنة 850هـ/1446م تولى وظيفة الإفتاء ببجاية، وقد ذكر الونشريسي فتاويه في "المعيار"²⁸.

***بلقاسم بن محمد الزواوي :**
هو الفقيه بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشدالي البجائي والد الفقيه أبو عبد الله المشدالي الذي سنأتي على ذكره لاحقاً. من شيوخه أحمد بن عيسى وعبد الرحمان الواغليسي.²⁹

***أبو عبد الله المشدالي : (ت. 866هـ/1461م)**
هو الفقيه محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد المشدالي الزواوي البجائي أبو عبد الله. تولى وظيفتي الإفتاء والتدريس ببجاية، أثنى عليه العديد من المؤرخين، خاصة التنبكتي الذي اعتبره علامة وفقيه وإمام وخطيب ومفتي بجاية.

25- التنبكتي، نفس المصدر، ج1، ص 102.

26- التنبكتي، نفس المصدر، ج1، ص 103.

27- التنبكتي، نفس المصدر، ج1، ص 373.

28- التنبكتي، نفس المصدر، ج2، ص 311. الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج5، ص 55.

29- التنبكتي، نفس المصدر، ج1، ص 163.

ألف أبو عبد الله في الفقه بعض الكتب منها تكملة لمدونة الوائوغي في مجلد وشرح "مختصر البيان" لابن رشد استنادا لما جاء في مختصر ابن الحاجب. وقد جاء هذا الشرح في 4 أسفار، وقد ذكرت فتاوى أبو عبد الله في "المعيار"، من أبرز تلاميذه محمد بن مرزوق الكفيف وأبو الربيع الحسناوي. توفي ببجاية³⁰.

*أبو العباس الزواوي : (ت. 930هـ/1524م)

هو الفقيه أحمد بن القاضي الزواوي أبو العباس لم نجد له ترجمة خاصة به لكن ما ذكره السلاوي في "الإستقصا" عن أحداث تلمسان سنة 923هـ/1518م كان هاما جدا، حيث ذكر فيها هذا الفقيه "صاحب الشهرة والوجاهة الكبيرة في بسائط المغرب الأوسط" ودوره في إعادة عاصمة الزيانيين لأهلها بعد محاولة الإسبان الإستيلاء عليها، قتل بتلمسان سنة 930هـ/1524م بتحريض من الأتراك³¹.

*إبراهيم بن محمد الزواوي : (عاش في القرن 10هـ/16م)

قال عنه ابن القاضي : "فقيه يستظهر مختصر ابن الحاجب، انتقل إلى مدينة "كنوا" بالسودان فتولى خطة الإفتاء وتدریس المذهب المالكي، من أهم شيوخه أبو راشد يعقوب بن يحيى البدری³².

*أبو العباس الزواوي : (عاش في القرن 13هـ/19م)

هو الفقيه أحمد بن المكي أبو العباس الزواوي، نزيل سلا بالمغرب الأقصى، علاقته وطيدة بالعائلة السعدية، حيث كان يلازم السلطان المولى سليمان خاصة أثناء صلاة الجمعة. لم نجد تاريخا لوفاته³³.

2- الفرع المشرقي :

*أبو الحسين زين الدين الزواوي : (564هـ-626هـ/1169م-1231م)

يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور، أبو الحسين زين الدين الزواوي المالكي الحنفي، أحد أئمة عصره في النحو والأدب وصاحب "الألفية" ولد بزواوة وانتقل إلى دمشق، حيث تصدر للتدريس. اشتهر بألفيته في النحو وهي قصيدة اشتملت على 1000 بيت كان قد نظمها بدمشق سنة 595هـ/1198م

30- التنبكتي، نفس المصدر، ج2، ص 221.

31- الناصري، نفس المصدر، ج4، ص 381.

32- ابن القاضي، نفس المصدر، ج1، ص 205.

33- الناصري، نفس المصدر، ج7، ص 190.

وسماها "الدرة الألفية في علم العربية" والتي اعتبرت لاحقا أساس كل تأليف في هذا العلم. وقد جاءت ألفية تلميذه جمال الدين الطائي³⁴ محاكية لها وسماها "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد". انتقل أبو الحسين إلى القاهرة بترغيب من السلطان الأيوبي الكامل حيث بقي هناك للتدريس والتأليف إلى حين وفاته. فدفن بتربة الإمام الشافعي. من أهم شيوخه ابن عساكر والجزولي³⁵.

*زين الدين أبو محمد الزواوي : (589هـ-681هـ/1193م-1282م)

هو الفقيه عبد السلام بن علي بن عمر زين الدين أبو محمد الزواوي. ولد بزواوة وانتقل إلى دمشق سنة 616هـ/1219م وتصدر للتدريس بالمدرسة الشرايشية مدة 22 سنة ليتحصل على مشيخة الإقراء بها. عينه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس قاضيا لقضاة المالكية سنة 664هـ/1266م وذلك في إطار الإصلاح القضائي الذي أحدثه هذا السلطان. من شيوخه علم الدين السخاوي وابن الحاجب ومن تلاميذه برهان الدين الإسكندري وأحمد الحراني³⁶.

*جمال الدين أبو يعقوب الزواوي : (ت. 683هـ/1285م)

هو الفقيه يوسف بن عبد السلام بن علي بن عمر جمال الدين الزواوي صهر الفقيه زين الدين أبو محمد الزواوي. انتقل إلى دمشق، ناب في القضاء عن هذا الأخير ليتولى بعدها الوظيفة كقاض للمالكية بعده ولمدة 10 سنوات

34- هو العلامة النحوي محمد بن عبد الله بن مالك جمال الدين الطائي الجبائي الأندلسي (601هـ-672هـ/1204-1273م) المتوفي بدمشق.

Fleisch (H) *Ibn Malik*, EI², III, p 885.

35- ابن خلكان، وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، دار الصادر، بيروت، 1977، ج6، ص 197. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1868، ج1، ص 206.

الحنبلي (ابن عماد)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت. دت

Pouzet (Louis) « Maghrébins à Damas au VII/VIII siècle », in *BEO*, T. XXVIII, 1975, p.176.

Troupeau (G), « Ibn Mu'ti », E.I², III, p 917.

36- ابن طولون، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، المجمع العلمي العربي، دمشق 1956، ص 243. الحافظ (مطيع)، القراءات وكبار القراء في دمشق من القرن الأول حتى العصر الحاضر، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003، ص 144.

Nielsen (J.S) "Sultan al-Zahir Baybars and the appointment of four chief qadis (663/1265)", *Studia Islamica*, 1984, IX, p.171.

بدءاً من سنة 673هـ/1274م. إلى جانب القضاء، كان هذا الفقيه يدرس الطب بالمدرسة اللبودية النجمية مع نفس الشخص. قتل جمال الدين الزواوي وهو في طريق الحجاز أثناء عودته من الحج³⁷.

***يحيى بن صالح بن عتيق الزواوي :**

ناب في القضاء مدة وتوفي بدمشق سنة 710هـ/1310م³⁸.

***ابن سرور البربري : (630هـ/717هـ-1233م-1317م)**

هو الفقيه محمد بن سليمان بن سرور البربري، جمال الدين أبو عبد الله المالكي الزواوي. تولى القضاء بدمشق مدة 30 سنة انطلاقاً من سنة 687هـ/1290م وذلك بعد مقتل جمال الدين أبو يعقوب الزواوي بالحجاز. وكان انتقاله من بجاية إلى القاهرة سنة 645هـ/1247م، ثم تحول إلى دمشق ليتولى وظيفة القضاء. جدد عمارة المدرسة النورية (أول مدرسة في الحديث). عزل عن القضاء قبل موته بعشرين يوماً وقد تميزت فترته بالصرامة والشدّة في الأحكام. دفن بمقابر باب الصغير بدمشق³⁹.

***شرف الدين الزواوي : (664هـ-743هـ-1265م-1342م)**

هو الفقيه عيسى بن مسعود بن منصور، شرف الدين الزواوي المنجلاتي، تفقه ببجاية على الشيخ أبو يوسف يعقوب الزواوي وتولى القضاء بقابس، لينتقل إلى القاهرة للتدريس بالأزهر، ناب في القضاء بالقاهرة عن قاضي القضاة زين الدين بن مخلوف المالكي ثم ناب مدة سنتين بدمشق، كما درس بزواوية المالكية وألف بعض الكتب أهمها : شرح صحيح مسلم سماه "إكمال الأكمال" وشرح مختصر ابن الحاجب. كما انتهت إليه رئاسة الفتوى في المذهب المالكي بمصر والشام. أثنى عليه العمري واعترف بفضله عليه في تأليف موسوعته⁴⁰.

37- ابن طولون، نفس المصدر، ص 243.

38- العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ج4، ص 416.

39- ابن طولون، نفس المصدر، ص 244. ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط1، 2003، ج2، ص 299.

40- ابن فرحون، نفس المصدر، ج2، ص 67. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مركز زياد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2001، ج6، ص 201. السيوطي، نفس المصدر، ج1، ص 459.

***بدر الدين الزواوي : (700هـ-775هـ/1300م-1373م)**

هو الفقيه محمد بن علي بن إسماعيل، بدر الدين الزواوي البجائي نزيل القاهرة، ليست لنا معلومات شافية عن هذا الفقيه باستثناء ما كتبه عنه العسقلاني، قتل بالقاهرة، من ابرز شيوخه ابن الشحنة⁴¹.

***أبو عبد الله الغبريني : (ت.787هـ/1385م)**

هو الفقيه النحوي محمد بن يحيى بن مؤمن بن علي الغبريني أبو عبد الله الزواوي الملقب بمنديل. قال عنه السيوطي نقلا عن الفاسي : "هو بحر في العربية وتحقيق مسائلها" قدم ابو عبد الله مكة حيث أخذ عن عدة شيوخ مثل أم الحسن بنت الحرازي والجمال السيوطي وابي العباس بن عبد المعطي النحوي. واستقر بها إلى حين وفاته ودفن بالمعلاة⁴².

***أبو الفضل المغربي المشدالي : (821هـ-864هـ/1418م-1459م)**

هو الفقيه محمد بن محمد بن أبي القاسم أبو الفضل المغربي المشدالي الزواوي ابن الفقيه أبو عبد الله المشدالي. ولد بمشدالة، كشف عن نبوغ منذ صغره، حيث حفظ القرآن وهو في الخامسة من عمره عرف بتنقله إلى بلدان كثيرة، بدءا بتلمسان حيث أخذ التفسير والحديث والطب وغيرهم عن الشيخ محمد بن مرزوق ابن الحفيد وعن الشيخ أبو العباس بن زاغو.

عاد إلى بجاية سنة 844هـ/1440م للتدريس ومنها انتقل إلى تونس ثم مصر سنة 845هـ/1441م ودمشق في نفس السنة وأخيرا حماة والقدس. ليعود بعدها إلى القاهرة للتدريس بالأزهر، قال السخاوي : "ومن لم يحضر درسه لم يحضر العلم بل ولا خرج إلى الوجود". رفض تولي وظيفة القضاء بمصر والشام. من أبرز تلاميذه، ابن ظهيرة، شمس الدين السخاوي، الشهاب البيجوري. توفي بعينتاب (حلب)⁴³.

41- العسقلاني، نفس المصدر، ج4، ص 58.

42- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار الفكر، ط2، 1979، ج1، ص 267. الفاسي (تقي الدين الحسيني)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مؤسسة الرسالة، ج2، ص 388.

43- التنبكتي، نفس المصدر، ج2، ص 222. رحلة القلصادي، الشركة التونسية للتوزيع تونس 1985، ص 127.

3- البعد العلمي : أهم دافع لتفرع العائلة :

يمثل "تشنت" العائلة الواحدة واتخاذ أفرادها وجهات مختلفة أمرا شائعا في العالم الإسلامي، خاصة في بلاد المغرب والأندلس وتبقى هذه الأخيرة الأكثر تعبيراً عن ذلك لما شهدته من تطورات سياسية أواخر الحقبة الوسيطة أثرت في حركية أفرادها وزادت في نسق الهجرة منها إلى مناطق إسلامية أخرى⁴⁴. لكن داخل هذا الفضاء الواحد تختلف عوامل حركية الأفراد وأسباب تحولهم. فالأندلسيون لا تزال هجرتهم إلى بلاد المغرب أو المشرق ذات طابع ديني واقتصادي وعلمي شأنهم شأن بقية المغاربة. لتتغير الظرفية مع تزايد سقوط المدن الأندلسية تحت قبضة النصارى، وهو ما غير صورة الهجرة لتصبح فرارا وطرادا⁴⁵ ولنا مثالا لعائلة ابن "سيد الناس" التي هاجر جزء من أفرادها نحو القاهرة وبقي الآخر بإفريقية الحفصية أو "عائلة السراج" التي انقسمت بين المغرب الأقصى وإفريقية الحفصية⁴⁶.

أما في بلاد المغرب فقد بقي العامل الديني والاقتصادي والعلمي هو الأساس لتنتقل المغاربة نحو المشرق لما يمثله هذا الأخير من تفوق حضاري لا يزال يؤثر بشكل كبير على المغاربة والأندلسيين⁴⁷. ففرع عائلة الزواوي الذي انتقل إلى المشرق المملوكي كان قد وجد الحضوة من قبل السلاطين المماليك وعمل على المساهمة في الحياة العلمية والأدبية وتصدر للتدريس والتأليف وتولي الوظائف داخل المؤسسات التعليمية والقضائية.

III- عائلة الزواوي : بيوت مشهورة بالدين وخدمة العلم :

1- التمسك بالمذهب المالكي :

باستثناء النحوي أبا الحسين زين الدين الزواوي المالكي الحنفي صاحب الألفية في النحو، تشبثت عائلة الزواوي بالمذهب المالكي بدرجة كبيرة وعملت على تدعيمه ببلاد المغرب والمشرق. هذا التدعيم اتخذت له

44- المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الإستقامة، القاهرة، ط 1، 1949، ص 368.

45- عنان (عبد الله)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين، مطبعة مصر، القاهرة، ط 2، 1958، ص 112.

46- حسن (محمد)، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 1999، ج 1، ص 574.

47- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة-بيروت، 1999، ص 778.

العائلة آليات، خاصة الفرع المشرقي الذي كان له الدور الكبير في ذلك. من بين هذه الآليات نقل مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي ومحاولة التعريف به ونشره ببلاد المغرب. لقد كان للفقيه ناصر الدين المشدالي الدور الأول في ذلك، حيث دامت رحلته إلى المشرق 20 سنة، عاد بعدها إلى بجاية بمختصر ابن الحاجب : "عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا أهل بجاية" ... ومما يعكس اهتمام هذه العائلة بما جاء في هذا الكتاب، سعيهم لنشره. فقام تلميذ ناصر الدين وصهره الفقيه عمران بن موسى المشدالي بنقل المختصر إلى تلمسان⁴⁸. وكان ذلك بداية من القرن 8هـ/14م في حين نقله الفقيه أبو عبد الله الزواوي إلى المرية سنة 715هـ/1315م، قال عنه ابن القاضي : "قدم المرية سنة 715هـ رسولا من بجاية واجتمع عليه طلبة المرية وفقهاؤها للأخذ عليه في الفرائض من مختصر أبي عمرو بن الحاجب وكان متحققا بعلمها"⁴⁹. أما الفقيه ابراهيم بن محمد الزواوي فقد قام بنقل المختصر معه إلى بلاد السودان، وتصدر هناك للتدريس ببلاد "كنوا" وهناك كان يستظهر بمختصر ابن الحاجب.

لم تكتف عائلة الزواوي بجلب المختصر من المشرق ونشره ببلاد المغرب وحسب بل عملت على نشر مضمونه بكل جدية وذلك ببث هذا الفقه في تلاميذهم ولو كان ذلك مع شيء من الصرامة وأبرز دليل على ذلك ما قام به الفقيه أبو عبد الله الزواوي المشدالي لما شرح مختصر البيان لابن رشد، حيث استند في ذلك على ما جاء في فقه ابن الحاجب، ثم قام بإلغاء كل ما لا يتماشى مع هذا الأخير⁵⁰. انها محاولة جادة لتجديد الفقه المالكي وتطعيمه بالمشرقي.

2- اندماج متفاوت في حياة المدنية مشرقا ومغربا :

أ- على المستوى الثقافي والاجتماعي :

لا يعني الإستقرار ضرورة الاندماج في الوسط الاجتماعي، فيمكن لشخص ما البقاء على الهامش دون المشاركة في عملية الانسجام. لقد تطرقنا في بداية المقال للحديث عن زاوية وعلاقتها بالمدينة بجاية، وبيننا أنها كانت منسجمة ومندمجة معها من خلال بعض التظاهرات، اندماج قبيلة

48- ابن خلدون، العبر، ص 773.

49- ابن القاضي، نفس المصدر، ج2، ص 101.

50- التنبكتي، نفس المصدر، ج2، ص 221.

مع مدينة يعني اندماج وسطها البشري كذلك. المظهر الآخر للإندماج يعتمد على القيمة الوظيفية والرمزية خاصة التي ينالها الأفراد.

والسؤال المطروح هو : هل اندمجت عائلة الزواوي ذات الأصول القبلية في المدن التي انتقلوا إليها ؟

لقد ترجم مؤلف "عنوان الدراية"، لـ 10 علماء من العائلة استقروا بصفة نهائية ببجاية انطلاقاً من الق 7/هـ 13م. وهذا مؤشر هام لبداية تجذر العائلة هناك ثم نجد هذا العدد يتعزز بأعداد أخرى في القرنين اللاحقين وفي نفس المدينة، ورغم التأثير الكبير للعاصمة آنذاك فإن هؤلاء العلماء لم نلاحظ لهم توطن هناك، بل كان استقرار مؤقت لتكون العودة إلى بجاية أو الاتجاه نحو المشرق.

إذن بجاية تمثل الموطن الأساسي لتركز الفرع المغربي لعائلة الزواوي، أدى هذا التركيز إلى تجذر العائلة العلمي والاجتماعي ومن أبرزهم فرعي مشدالة ومنجلات. فالفقيه محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي (ت. سنة 860هـ/1455م بحلب) هو ابن الفقيه محمد بن أبي القاسم أبو عبد الله المشدالي (ت. ببجاية سنة 866هـ/1461م) العلامة والفقيه والإمام والخطيب والمفتي ببجاية، وهذا الأخير هو ابن الفقيه بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد المشدالي قال عنه التنبكتي : "وهو في بجاية كالبرزلي بتونس"⁵¹. المثال الثاني لفرع منجلات ممثلاً في الفقيه أبو يوسف يعقوب المنجلاتي (ت. 690هـ/191م) الذي "عظم أمره واشتهر" ببجاية شأنه شأن ابنه محمد بن يعقوب بن يوسف المنجلاتي الذي "استبحر في علم المسائل والفروع" وكان من المجددين في الفقه المالكي إلى جانبهما برز أبو العباس الغبريني وأبناؤه في ميداني القضاء والإفتاء سواء بتونس أو ببجاية. ويعتبر أبو العباس الغبريني أحد أبرز مؤرخي القرن 7/هـ 13م فكتابه "عنوان الدراية" يعتبر مصدراً أساسياً عن علماء بجاية في الق 7/هـ 13م، ساهم في إثراء المكتبة المغربية وقد شغل الغبريني خطة قاضي الجماعة ببجاية.

51- التنبكتي، نفس المصدر، ج 1، ص 163.

من مظاهر اندماج هذه العائلة هو تواجد أغلبها في الوظائف الهامة كالقضاء والإفتاء والتدريس بأهم المؤسسات التعليمية كجامع الزيتونة بتونس أو الأزهر بمصر، فالفرع الذي استقر ببلاد المغرب تواجد بأبرز المدن مثل تونس وفاس وتلمسان وحتى بلاد السودان التي استقر بها الفقيه ابراهيم بن محمد الزواوي مدرسا لمختصر ابن الحاجب وتبقى بجاية الأولى استقطابا لهؤلاء⁵².

هنالك عامل آخر هام ساهم في اندماج عائلة الزواوي مع الأوساط الاجتماعية وهو عامل اختص به الفرع المغربي، إنه الشق الذي اكتسب قدسية دينية بواته في المجتمع مرتبة "عالية"، أبرزهم الفقيه أبو زكرياء يحيى ابن أبي علي المكني بسيدي يحيى (ت. 611هـ/1215م) شيخ التصوف ببجاية⁵³. أفرد له الغبريني في مؤلفه ترجمة مطولة تبين قيمة هذا الفقيه كأحد أعلام التصوف، حكيت عنه الكرمات، وكان تأثيره على وسطه الاجتماعي كبير جدا، ولعل ما حكاه الغبريني عنه أبلغ وأعرق دليل على ذلك، فهو يقول عنه : "وظهرت عليهم (الناس) بركته وفعلت فيهم سريرته الصالحة ونيته فانتفع الخلق على يديه. وما من ناحية من النواحي إلا وله فيها مسجد ومعلم وكلها معروف بالبركة".

ما ذكره الغبريني عن هذا الفقيه يكشف لنا عن قوة تأثير لهذا الشخص على وسطه الاجتماعي بل أن الأفراد اندمجوا مع حياة هذا الشخص الذي زادتهم كراماته تعلقا به وصل إلى حد التبرك به حيا وميتا "فلما فشا خبر وفاته في الناس وارتفع صراخهم... وجهوا نقيبا لصيانة جثته الزكية من ابتذال من يلي بها ويقتحم للتبرك بما بين ثوبها".

المثال الثاني، ودائما في القرن 7هـ/13م، ممثلا في الفقيه أبو الحسن اليتورغي الزواوي، والذي استطاع بكراماته أيضا أن يشد الناس إليه شدا عجيبا محققا معهم علاقة اندماج وتواصل⁵⁴. وقد عاصره الغبريني حسب

52- ترجم الغبريني في كتابه لعشرة علماء من زواوة كانوا قد استقروا ببجاية طيلة القرن 7هـ/13م ويرى الدكتور صالح بعيزيق أنها نسبة هامة إذا قورنت بغيرها باستثناء الاندلسيين بعيزيق (صالح) : **الاندماج القبلي في مجتمع المدينة : مثال قبيلة زواوة ومدينة بجاية في العهد الحفصي**، أشغال الملتقى الدولي الأول حول القبيلة في العالم العربي، تونس، 2004، عدد 127، ص 138.

53- برونشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 335.

54- سعيد (محمد)، ظاهرة الأولياء والصالحين بإفريقية من القرن 2 هجري إلى القرن 7 هجري، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف، د. منيرة شابوطو الرمادي، الجامعة التونسية، تونس، 2000، ج1، ص 42.

قوله في بني يتورغ، والمدهش أن هذا الفقيه تواصلت كراماته على الناس حتى بعد الوفاة، قال الغبريني، "فلما حضرته الوفاة... بكوا عليه لفراقه، فقال لا عليكم. مهما أصابكم أمر أو عارض فاتوا إلى قبري واذكروا شكوكم... وما زالوا بعده مهما عرض لهم عارض يفعلون ذلك فيجدون نفعه".

هذان المثالان من أبرز الأمثلة أردنا من خلالها، ليس الحديث في مسألة التصوف الشعبي بل تبيان مدى اندماج "الزواوي" مع وسطه الاجتماعي وصلت إلى حد التأثير فيه.

بالنسبة لفرع المشرق، فهو رغم توطئه البعيد، إلا أنه بين سرعة اندماج مع الوسط الجديد، بل وظهر "قوة شخصية" وذلك من خلال مساهماته على جميع الأصعدة أهمها :

وضع أسلوب جديد لفهم علم النحو عن طريق نظم القصائد، فالنحوي يحيى بن عبد المعطي الزواوي (ت628هـ/1231م) كان السباق إلى ذلك وأصبح منهجه متبعا من بعده من خلال تلميذه جمال الدين بن مالك الجباني (ت672هـ/1273م) صاحب الألفية. وقد أثنى عليها المستشرق "لوي بوزيه" واعتبرها بمثابة "القاعدة" والأساس لفهم ودراسة علم النحو بطريقة جديدة ومستساغة. من ناحية أخرى احتكر جانب من عائلة الزواوي بعض الوظائف كالتدريس والقضاء وسنفرد عنصرا خاصا عن قصة العائلة في المشرق مع القضاء. ومن مظاهر احتكار التدريس البقاء فيه لسنوات فالفقيه زين الدين أبو محمد الزواوي قضى 22 سنة مدرسا بالصالحية لتنتهي إليه مشيخة الإقراء بها في حين احتكر كل من الفقيه جمال الدين أبو يعقوب يوسف وصهره زين الدين الزواوي تدريس الطب بالمدرسة النجمية⁵⁵. أما ابن سرور الزواوي فقد درس بالصمصامية إلى حد وفاته سنة 717هـ/1317م هذا بالإضافة إلى تجديده عمارة المدرسة النورية أقدم مدارس الحديث بدمشق.

ب- على المستوى السياسي :

يمثل الجاه والثروة إحدى أهم الدعائم للوصول إلى السلطان والسلطة. وكلما زاد هذان العاملان قوة كلما زاد التقرب للمناصب السياسية الهامة

55- Pouzet (Louis), « Maghrébins », op. cit, p. 177.

والمؤثرة⁵⁶. ولقد رصد عبر التاريخ نماذج لعائلات استطاعت الوصول للسلطة ومنازعة السلطان في ذلك بل وحتى التأثير في مجرى القرارات.

بالنسبة لعائلة الزواوي، ورغم علاقة البعض منهم بالسلطين مشرقاً أو مغرباً فإننا لم نجد ما يدل ويثبت على أن لها علاقة بالجانب السياسي أو لها طموح ومشروع من هذا القبيل فعلى المستوى المادي لا يمكن تصنيفها من بين العائلات الثرية والتجارية، بل هي عائلة برزت في الميدان العلمي والديني دون سواه. وهذا ما بوأ البعض منهم مكانة لدى السلطين، فالنحوي يحيى بن عبد المعطي الزواوي صاحب الألفية (ت. 628هـ/1231م) كانت له علاقة وطيدة بالسلطان الأيوبي الكامل، وهو الذي حثه على القدوم إلى القاهرة للتدريس بها، بعد أن سكن دمشق، في حين كان الفقيه أبو يوسف يعقوب المنجلاتي (ت. ق. 7هـ/13م) يزوره بعض الملوك في منزله وكان قد درس ببجاية "وعظم أمره واشتهر" أما الفقيه أحمد بن محمد الزواوي (ت. 749هـ/1348م) فقد كان من الملازمين لمجلس أبي الحسن المريني، وكان من بين 400 عالم الذين استقدمهم السلطان المريني معه إلى تونس ويبقى المثال الأهم في الفقيه أبو العباس أحمد الزواوي (ت. 930هـ/1524م) نزيل تلمسان، الذي ساهم في استعادة الزيانيين لملكهم حيث أرسل في استقدام الأخوين عروج وخير الدين التركيين لمنازعة الإسبان. وقد ذكر السلاوي هذه الحادثة في مؤلفه الإستقصا وهو الوحيد من بين العائلة الذي يعترف بشهرته ووجاهته في المغرب الأوسط⁵⁷. وربما كان لشهرته ووجاهته وتأثيره بتلمسان الدافع الأول لقتله من قبل الأتراك وإزاحته.

3- الفرع المشرقي والقضاء :

يمثل القضاء إحدى أهم المناصب الدينية الممتازة في العالم الإسلامي حيث بدأ ظهوره مع الخليفة عمر بن الخطاب ثم تبلور بظهور منصب قاضي القضاة أو قاضي الجماعة⁵⁸. وقد شهد هذا الميدان إصلاحاً هاماً مع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ليفسح المجال لجميع المذاهب السنية وذلك بإقرار أربعة قضاة، بعد أن كان المذهب الشافعي هو المهيمن ببلاد

56- Baizig (Salah), « L'élite andalouse à Tunis et à Bougie et le pouvoir Hafside », *Mélanges de l'école Française de Rome, Moyen-âge*. T115-1-2003. p. 533.

57- الناصري، نفس المصدر، ج4، ص 381.

58- Gy Kaldy (Nagy), « Kadhi », *El², TIV*. p. 390.

الشام ومصر⁵⁹. وقد شمل هذا الإصلاح مصر انطلاقاً من سنة 663هـ/1265م ثم دمشق في السنة الموالية.

بالنسبة لعائلة الزواوي، فإن فرعها المشرقي قد نال شرف تعيين أحد فقهاءهم كأول قاض للقضاة على المذهب المالكي بدمشق وهو الفقيه زين الدين أبو محمد الزواوي (ت بدمشق 681هـ/1282م) كان قد درس 22 سنة بالمدرسة الصالحية والمدرسة الشراشبية وولي بهما مشيخة الإقراء، ولعل عامل السن والكفاءة العلمية كانتا سبب الاختيار. استمر زين الدين في الوظيفة 9 سنوات ليطلب بعدها الإعفاء سنة 673هـ/1274م. فتولى من بعده صهره جمال الدين أبو يعقوب يوسف الزواوي (ت. 683هـ/1285م) لمدة 10 سنوات انتهت بمقتله في الحجاز وقد كان قبل ذلك ينوبه في الحكم. ونلاحظ أن لهذين الفقيهين مؤهلات علمية كبيرة إلى جانب علاقة القرابة التي تجمع بينهما. فالأول احتكر تدريس علوم القرآن 22 سنة بدمشق والثاني احتكر تدريس الطب بالمدرسة النجمية. إلى جانب أنهما كانا من أوائل عائلة الزواوي اللذان انتقلا إلى المشرق. رغم القتل، لم يتوقف تأثير "الزواوي" بل بدا حتمياً، فما حصل بين سنة 683هـ/1285م و687هـ/1290م، كان له دلالة على ذلك، ما حدث هو أن السلطان بيبرس بعد وفاة جمال الدين كان قد عين الفقيه المغربي جمال الدين بن الشريشي لكنه رفض وحسب المصادر فإن المنصب بقي شاغراً رغم تواجد "زواوي" آخر مستعد لتولي الوظيفة⁶⁰. وربما يكون السلطان قد تخوف من هيمنة العائلة الشيء الذي جعله مصراً في البداية على تولي الشريشي الوظيفة.

خلف الفقيهين الزواوي بعد شغور المنصب محمد ابن سليمان ابن سرور البربري الزواوي ليبقى طيلة 30 سنة قاضياً لقضاة المالكية، وانطلاقاً من سنة 687هـ/1290م ستبدأ مرحلة هامة لعائلة الزواوي وللمالكية بدمشق بصفة عامة⁶¹.

59- Pouzet (Louis), *Damas*, op cit, p. 108.

60- الصفدي، الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر، ط2، 1962، ج3، ص 137.

61- سلامي محرز، العلماء المغاربة بالدولة المملوكية، بحث لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الحضارات الوسيطة إشراف د. خالد كشير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2011، ص 131.

ويمكن أن نسميها بمرحلة التدعيم والتجذر، حيث لاح للجميع الهيمنة الواضحة، من أهم ملامحها تواصل تعيين النواب من نفس العائلة، ذلك أن قاضي القضاة يتمتع بصلاحيات تعيين نوابه فعين ابن سرور البربري الفقيه يحيى بن صالح بن عتيق الزواوي واثروافته عين الفقيه عيسى بن مسعود الزواوي.

في الواقع لم تصدر انتقادات على هذه التعيينات أو على سياسة الشدة والصرامة التي انتهجها ابن سرور في أحكامه، ربما اقتنع بيبيرس بكفاءة العائلة وجدارتها في تمثيل المالكية هناك.

شهدت فترة ابن سرور البربري الزواوي أحداثا هامة نقلتها المصادر المشرقية، كما ذكرت سابقا تميز حكمه بالشدة وحتى الغرابة حيث "ظهرت في أيامه ما لم يكن المالكية يعرفونه"⁶². سنسوق بعض الأحداث التي تبين شدة أحكام هذا القاضي المالكي.

فقد حكم على الفقيه محمد بن جمال الباجريقي، بعد اثبات محضر ضده بالقتل وإراقة دمه حتى ولو تاب وأسلم، والباجريقي كان قد ثبت ضده الكفر فهرب هذا الأخير من دمشق ولم يعد إلا بعد وفاة القاضي الزواوي⁶³. الحادثة الأخرى كانت سنة 715هـ/1315م حكم فيها على الفقيه أحمد الزويني بإراقة دمه وإن تاب وقد اتهم بترك الواجبات واستهانت بالكتاب والسنة. هذه الصرامة وعدم التسامح في ما يخص المقدس هي في الحقيقة سمة من سمات المالكية وشعار من شعاراتها، أراد ابن سرور الزواوي من خلالها تدعيم القضاء المالكي.

المهم أن هذا الفرع من عائلة الزواوي كان قد برز في ميدان القضاء وتوارثه تقريبا طيلة 50 سنة، انطلاقا من سنة 664هـ/1266م وصولا إلى سنة 717هـ/1317م تاريخ وفاة ابن سرور، وبذلك ينتهي تأثير العائلة على القضاء المالكي.

62- العسقلاني، نفس المصدر، ج3، ص 448.

63- ابن طولون، نفس المصدر، ص 224.

خاتمة :

استطاعت قبيلة زواوة بفضل الموقع الجغرافي وسمة الاستقرار، أن تساهم في دعم الحركة الاقتصادية والاجتماعية لمدينتها بجاية من ناحية أولى ومن المساهمة في الحركة العلمية والثقافية بفضل ثروتها البشرية، ولقد مثلت عائلة الزواوي وغيرها من الذين ينتمون لقبيلة زواوة جزء لا يتجزأ من بجاية، نظرا للإرتباط الوثيق والاندماج الناجح لهذه التركيبات الاجتماعية مع محيطها، ولقد ثبت تفاعلها أيضا خارج مواقعها الأصلية مثلما لاحظنا مع عائلة الزواوي.

بناء على ما ورد في هذا المقال، نستخلص عديد الملاحظات سنوردها تباعا :

- اندماج قبيلة زواوة مع المدينة هو في الحقيقة اندماج لتركيباتها الاجتماعية التي هي أساس كل هيكل قبلي، هذه التركيبات تميزت بالكثافة وكثرة الفروع وهو ما من شأنه أن يمنح القبيلة فعالية مع مجتمع المدينة.

- استطاعت عائلة الزواوي أن تكتب لها تاريخا اجتماعيا وثقافيا وقد ساهم تشتتها بين بلاد المغرب والمشرق في ذلك.

- قدمت العائلة إسهامات خاصة في ميادين العلم والدين كالتجديد في علوم اللغة العربية وإثراء الفقه المالكي. هذا بالإضافة إلى تولي الوظائف الدينية السامية.

- تشبث العائلة التقليدي بالمذهب المالكي وإمامها بأصول فقهه وقواعده منحها شرف تمثيله بدمشق من خلال تولي وظيفة القضاء فتوارثته ودعمته طيلة نصف قرن.

- علاقة وطيدة بالسلطين، لكن ذلك لم يؤد بالعائلة إلى تولي مناصب سياسية مؤثرة، عائلة ليس لها طموح أو مشروع سياسي، برزت في خدمة العلم والدين ويبقى الاعتراف كما يقال سيد الأدلة، فقد اعترف العلامة ابن فضل الله العمري بفضل الفقيه شرف الدين الزواوي عليه في تأليفه موسوعته عندما أراد أن يكتب عن أخبار افريقية وبلاد السودان. وهو اعتراف ثان يأتي بعد اعتراف الصفدي الذي استعان بالعلامة أثير الدين الغرناطي في كتابته عن المغاربة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر :

- التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، تحقيق علي عمر، (2 أجزاء) ط1، 2004.
- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، مكتبة الثقافة الدينية، مصر - دار الفكر، بيروت (5 أجزاء).
- الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (8 أجزاء) تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).
- ابن خلدون - العبر، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، 1999.
- المقدمة، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، 2003.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، تحقيق إحسان عباس، 1977. (7 أجزاء).
- السيوطي - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1968، تحقيق محود أبو الفاضل إبراهيم (2 أجزاء).
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1979.
- الصفدي، الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر، ط2، 1962، باعتناء رمزي بعلبكي (22 جزء).
- ابن الطواح، سبك المقال لفك العقال، تراجم وأعلام من القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995، تحقيق محمد مسعود جبران.
- ابن طولون، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1956.

- العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق أحمد عبد القادر الشاذلي، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، (4 أجزاء)
- العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي أبو ظبي، (د.ت).
- الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت).
- الفاسي (الحسيني)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، (د.ت).
- ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط1، 2003، (2 أجزاء).
- ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس - دار التراث، القاهرة، (د.ت).
- القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، ط2، تونس، 1978.
- الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل وآخرون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004، (3 أجزاء).
- المرآكشي (عبد الواحد)، المعجم في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الإستقامة، القاهرة، ط1، 1949.
- ابن مريم (التلمساني)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.
- الناصري (السلوي)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، 2001، (10 أجزاء).
- النباهي (أبو الحسن)، تاريخ قضاة الأندلس، المسمى بالمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، (د.ت).
- الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

المراجع العربية :

• برونشفيك (روبار)، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى 15م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988، (2 أجزاء).

• بعيزيق (صالح) - بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006.

- "الاندماج القبلي في مجتمع المدينة : مثال : قبيلة زواوة ومدينة بجاية في العهد الحفصي"، أشغال الملتقى الدولي الأول حول القبيلة في العالم العربي، تونس، 2004، عدد 127.

• جامعة الجزائر، معجم مشاهير المغاربة، الملكية للطباعة والإعلام والنشر والتوزيع، الجزائر، 1995.

• الحافظ (مطيع)، القراءة وكبار القراء في دمشق من القرن I حتى العصر الحاضر، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003.

• حسن (محمد)، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999 (جزءان).

• سعيد (محمد)، ظاهرة الأولياء والصالحين بإفريقية من القرن 2هـ/8م إلى مطلع القرن 7هـ/13م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه تحت إشراف د. منيرة شابوطو الرمادي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2000.

• سلامي (محرز)، العطاء المغاربة بالدولة المملوكية، مذكرة بحث لنيل شهادة الماجستير، إشراف د. خالد كشير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2011.

• عنان (عبد الله)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة مصر، القاهرة، ط2، 1958.

المراجع الأجنبية :

- BAÏZIG (SALAH), « L'Elite Andalouse à Tunis et Bougie et le pouvoir Hafside », *Mélanges de l'Ecole française de Rome*, Moyen âge, Tome 115-1, 2003, pp. 523-542.
- FLEISCH (H) - « Ibn Al Hâdjib » **EP**, Leyde-Paris, 1975, TIII, p. 804-805.
- « Ibn Mālik », **EP**, Leyde-Paris, 1975, TIII, p. 885-886.
- GAUTIER (E.F), *Le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs*, Payot, Paris, 1952.
- GY KALDY (Nagy), « Kâdhî » **EP**, Leyde-Paris, 1975, TIV, p. 390-392.
- HOPKINS (J.F.P), « Ghubrīnī », **EP**, Leyde-Paris, 1977, TII, p. 1102.
- NIELSON, (J.S), "Sultan Al-ZAHIR baybars and the appointment of four chief qādis (663/1265)", *Studia islamica*, N IV, 1984, pp. 167-175.
- POUZET (LOUIS), *Damas au VII^{ème}/XIII^{ème} siècle: Vie et structures religieuses dans une métropole islamique*, Dar El-Machraq SARL Editeurs, Beyrouth, 1988.
- « Maghrébins à Damas au VII^{ème}/XIII^{ème} siècle » *BEO TXXXVIII*, 1975, pp. 167-199.
- Troupeau (G), « Ibn Mu'ti », **EP**, Leyde-Paris, 1975, TIII, p. 917.